

على هامش مهرجان الموصل لنستمع الى صوت أبي تمام ! بقلم رجا والنقاس

الصفحات المليئة بالاضطراب والارتباك والثرثرة ، وان العرب لن يخسروا شيئاً اذا ما أحرقوا مثل هذه الصفحات والقوا بها في البحر ... ولكن التراث العربي من جانب آخر يضم صفحات مشرقة حارة مليئة بالتجربة الانسانية العالية والعمق الفكري والاصالة ... وهذا الجانب الخصب من تراثنا هو ما يستحق البقاء والاهتمام ... وهو ما يستحق ان نفض عنه الغبار ونخرج به الى النور والحياة ، ونربط بينه وبين واقعنا الحقيقي الذي نعيش فيه ، ولا يكفي اطلاقا بالنسبة لهذا التراث ان نجعل منه مادة للدارسين المتخصصين في الجامعات ، يدرسونه على مريض في قاعات البحث المغلقة ، فاذا اخرجوا الى الحياة العامة نفضوا ايديهم منه وتكروا له وخجلوا منه وأخفوا معرفتهم به امام الحياة العامة . ان مثل هذا الموقف خطأ في خطأ ، لاننا يجب ان نجعل من تراثنا الاصيل حياة حقيقية متصلة بحياتنا العصرية .

وليأذن لي القارئ الكريم في ان استطرد قليلا في الحديث عن موقفنا من التراث لاقول : ان الحضارة الغربية التي هي نموذج الحضارة العصرية المتقدمة تنظر الى الماضي نظرة احترام عميق ، وتهتم بكل صغيرة او كبيرة تتصل بالثقافات او الفنون القديمة ، حتى لقد اصبح معروفا عند الدارسين المعاصرين ان الحضارة الغربية المعاصرة انما تقدم على ثلاث اسس رئيسية الاولى هي الثقافة اليونانية والثانية هي المسيحية والثالثة هي العلم والاساس الاول وهو الثقافة اليونانية يمثل الاهتمام العميق بالماضي واحترامه واحياء ما فيه من فكر وفن . والاهتمام بالثقافة اليونانية يحمل معه دائما اعمق الاهتمام بالتراث القديم في الحضارة الغربية في كل المراحل والعصور ، وما الثقافة اليونانية ، الا رمز لهذا التراث القديم لانها اخصب مرحلة من مراحلها وأهم أصل مسن اصوله .

ويخطر على بالي وأنا أكتب هذه الكلمات الاحتفال السنوي الكبير الذي تقيمه إنجلترا في ذكرى شيكسبير ، حيث يتم تقديم مهرجان عظيم للفن والفكر في مسقط رأس شيكسبير ، ويتحول هذا المهرجان كل عام الى عمل مؤثر حي في ميدان الفن والفكر يشترك فيه كثير من اصحاب العقول الكبيرة في شتى أنحاء العالم . ونحن

كان مهرجان أبي تمام الذي اقيم في الموصل عملا ثقافيا ناجحا بلا شك ، فمن اجل احياء ذكرى أبي تمام اجتمع عدد كبير من الكتاب والمفكرين من ذوي الاتجاهات والمدارس المختلفة ، كما تم اعداد تمثال لابي تمام ليقام في احد الميادين العامة بالموصل .

وهذا التكريم من جانب العراق لابي تمام هو تكريم يستحق التقدير ، وهو من ناحية اخرى نوع من الدعوة الى احياء تراثنا بصورة جادة وحقيقية ... اننا نتحدث كثيرا عن التراث ، ولكننا نسعى في الواقع العملي الى تحنيط هذا التراث ووضعه في متاحف يزورها العابرون بين حين وحين ، ولكننا لا نعامل التراث معاملة سليمة بعد خيوط حية بيننا وبينه ، واختيار الباقي من هذا التراث لمزجه مزجا سليما بعصرنا ومشاكلنا وظروفنا المختلفة . اننا نجد في ميادين العواصم العربية المختلفة كثيرا من التماثيل لرجال السياسة والاقتصاد بل وبعض الشخصيات الاجنبية ولكننا لا نجد تماثلا لفنان عربي كبير قديما كان او معاصرا الا في القليل النادر . ولست بحاجة الى ان اقول ان هذا الموقف ليس الانوعا من مرض شهير يسود الحضارات في عصور تخلفها واضطرابها ، وهو ان يمتلىء انسان تلك الحضارة بالاحتقار لنفسه واضطهادها والنظر الى كل ما يتصل بداته نظرة استخفاف واستنكار ، بل ان انسان هذه الحضارة المضطربة المتخلفة يكون في العادة جاهلا بنفسه ، سواء ما كان يتصل بماضي هذه النفس ، او بحاضرها . ولا يستطيع احد ان ينكر ان النفسية العربية تعاني من هذا المرض نتيجة لعصور متتالية من التخلف الحضاري الذي أفقدنا الثقة في انفسنا وفي كل ما يتصل بنا من تراث حضاري . واذا حاولنا ان نقوم بدراسة بسيطة للجيل الجديد من المثقفين لوجدنا منهم انصرافا عن التراث العربي ورفضاً له واستنكارا كاملا لما فيه من فكر وأدب وشخصيات بارزة . ولست اشك في ان الاجيال الادبية الجديدة في حياتنا العربية قليلة العلم بأدب أبي تمام والتمني وأبي العلاء . وهي اكثر من ذلك تحمل في اعماقها نوعا من الرقوض الكامل لاي اهتمام بمثل هؤلاء الفنانين والادباء الذين يملكون لحظات مضيئة مشرقة في تاريخنا الادبي والفكري . ولا شك ان التراث العربي فيه كثير من

نعرف أيضا ما تبذله اسرائيل لحياء تراثها الفكري والادبي ولقد ركزت اسرائيل في السنوات الماضية على اديبها المعروف « يوسف عجنون » ، وكان ابرز شيء فسي « عجنون » من وجهة النظر الاسرائيلية هو انه في كتابته مرتبط أشد الارتباط بتقاليد اللغة العبرية القديمة والفكر العبري القديم .

على ان هذه الدعوة الى احياء التراث العربي ، والجانب المشرق فيه على وجه الخصوص ، لا تعنى ابدا ، ان نستسلم لهذا التراث ، وتأخذ كما اخذه القدماء ، وننظر اليه بعيونهم ، فمثل هذا الموقف لا يمكن ان يعني في نهاية الامر الانوعا من تكرار نسيج قديم في الثقافة والحضارة ، والتكرار هو نوع من الجمود الفعلي والعبودية الفكرية وليس في جمود العقل او عبودية الفكر اي نوع من الجدوى على الحضارة او الانسان .

ان المطلوب هو ان ننظر بعيوننا العصرية الى تراثنا القديم حتى نستطيع بذلك ان نراه في ضوء جديد ، وحتى نستطيع ان نجد ما يفيدنا وما يضيف اليها . وأعود هنا الى نموذج شيكسبير حيث يحاول المخرجون المسرحيون والسينمائيون والنقاد الانجليز ان يقدموا دائما تفسيرات عصرية جديدة لشيكسبير سواء كان ذلك عن طريق العروض المسرحية او السينمائية او عن طريق التفسير النقدي الخالص . واذكر في هذا المجال مسرحية من مسرحيات شيكسبير هي « تيمون الاثيني » ، و « تيمون » هو نموذج للانسان الذي يمد يده بالخير لجميع البشر ثم يكتشف في آخر الامر ان هؤلاء البشر مليون بشر فينسحب ليعيش وحيدا في غابة الطبيعة بعيدا عن غابة البشر . وبعد سنة ١٩٥٦ قدم احد المخرجين الانجليز هذه المسرحية في مهرجان شيكسبير السنوي ، ولكنه قدمها بتفسير جديد من وجهة نظره ، فقد تراءى لهذا المخرج ان « انجلترا » هي تيمون الاثيني ، وذلك بعد حرب السويس سنة ١٩٥٦

فقد دخلت انجلترا حرب السويس وخرجت منها وحيدة معزولة كانت انجلترا تمد يدها بالخير للجميع وبعد حرب السويس تخلى عنها الجميع فأصبحت وحيدة منزلة تشكو جراحها وبلواها بعيدا عن الجميع . هكذا فسر المخرج الانجليزي مسرحية « تيمون الاثيني » واعطاها معناها العصري الجديد ، وهو معنى خاطيء لا نملك الا ان نرفضه ونستنكره لاننا نعرف بكل وضوح من خلال تجربتنا السياسية والحضارية ان انجلترا لم تكن في تعاملها معنا صاحبة رسالة بقدر ما كانت قوة استغلالية ظالمة ، كما ان حرب السويس لم تكن من اجل دعوة عادلة بقدر ما كانت حربا على الحق والعدل والحقوق الانسانية السليمة ولكن الذي يهمنا هنا هو ان الفريبيين يحاولون دائما ان يفسروا ادبهم القديم تفسيرا عصبيا يخطئون في بعضه احيانا ، كما اخطأ هذا المخرج الذي اراد لشيكسبير ان يكون خادما للاستعمار الانجليزي ولكنهم يصيبون احيانا كثيرة في هذه المحاولة التي

تضئ ادبهم القديم اضاءات عصرية وتعطيه قدرة على ان يضيف للعقل الجديد مزيدا من القوة والعمق .

وهذا هو ما نحتاج اليه في موقفنا من التراث الذي يستحق ان يعيش بيننا ويستمر بل انني أقول اكثر من ذلك ان « العصرية » هي المقياس الصحيح الذي يمكن ان نفرق به بين الاصيل من تراثنا والزائف من هذا التراث ، واعني بالعصرية : ان كل « تراث » يمكننا ان نحياه على ضوء فكرنا الجديد ويمكننا ان نجد فيه ما يضيفه اليها ويعلمه لنا هو تراث جيد ويستحق البقاء ، اما اذا استعصى هذا التراث على العصر الذي نعيش فيه ولم يعطنا شيئا ولم يستطع ان يفتح لنا اسراره بمفاتيحنا العصرية الجديدة مثل هذا التراث هو - فسي اعتقادي - تراث لا يستحق الحياة ولا يستحق منا ان نذرف عليه دمعة واحدة اذا احترق ، او غرق في البحر فالحقيقة - في نهاية الامر - هي ان الفنان او المفكر الكبير يخاطب كل العصور ، بنفس القوة والصدق الذي يخاطب به عصره ، ولست اشك مثلا في ان عصرنا الراهن ما زال يستمع الى صوت افلاطون وارسطو وديكارت كما يستمع الى صوت هيجل وماركس وسارتر وماركوز . ولست اشك في ان عصرنا ما زال يستمع الى صوت سونوكليس وشيكسبير كما يستمع الى صوت تولستوي وتشيكوف وكازانتزاس . ولست اعني بذلك اننا نوافق تلك الاصوات القديمة في كل شيء بل على العكس قد يكون استماعنا الى تلك الاصوات عن طريق الصراع معها والحوار والاختلاف ، ولكن المهم انها ما تزال اصواتا مسموعة بالنسبة لعصرنا ، وهي من اجل تراث قديم ومعاصر في نفس الوقت ، وهي من اجل ذلك ايضا ما زالت تملك القدرة على مخاطبة العصر والدخول معه في حوار عميق .

واريد ان انتقل من هذه النقطة بالذات ، واستخدم هذا المقياس بالتحديد في تسجيل بعض الملاحظات حول شخصية ابي تمام بهذه المناسبة الناجحة الممتازة ، وهي مهرجان ابي تمام الذي انعقد في الموصل في الشهر الماضي واعتقد اذا كانت المقدمات السابقة اكثر مما ينبغي واود ان تكون قد ابعدتنا عن ابي تمام وقضيته .

اريد ان اسأل : هل يعطي ابو تمام لعصرنا الراهن شيئا ؟ اذا كان يعطي لعصرنا شيئا فهو اذن فنان يستحق الحياة والبقاء ، وان كان لا يعطي فهو - في تقديري - يستحق النسيان والموت والاحتراف بلا حزن عليه ولا رثاء واسارع فأجيب على هذا السؤال : ان ابا تمام يعطي لعصرنا اشياء كثيرة ، ويضع امامنا مشاكل رئيسية وحلولا لبعض المشاكل الرئيسية ومن اجل هذا فهو يستحق البقاء الى اليوم والى الابد وما بعد القدر ، ويستحق منا ان نهتم به ونحتفل بذكراه ونقيم له التماثيل ونسمي الشوارع والبيادين باسمه وتكون بذلك قد اعطيناه بعض حقه .

فماذا يقول ابو تمام لعصرنا وماذا يعطي ابو تمام

لهذا العصر ؟ .. سأحاول في السطور التالية ان الخص ما ارى ان ابا تمام يعطيه لعصرنا ويقول له هذا العصر ، مؤمنا بأن مثل هذا التلخيص يحتاج لمزيد من التفصيل الدقيق والبحث العميق ... وما السطور التي أحدد بها هنا علاقة ابي تمام بعصرنا الا مشروع دراسة يجب ان تكون اطول واشمل وأعمق .

وأول ما ارى ان ابا تمام يقوله لعصرنا هو ما يتصل بقضية « الشعر والتجربة الانسانية » . ان ابا تمام يقدم نموذجا حيا للفنان الذي رفض العزلة عن مجتمعه واندمج في هذا المجتمع وعاش بتجاربه الواسعة وارتبط بالتيار العنيف للحياة في هذا المجتمع . لقد ولد بالشام ، وقضى عدة سنوات في مصر ، وسافر الى بغداد وغيرها من مناطق الحضارة الاسلامية المختلفة ، واستقر في آخر عمره بالموصل حيث عمل فيها واليا على البريد ومات ودفن هناك . هذه اذن حياة غنية خصبة ، حياة لم تعرف الانطواء والعزلة والانفصال عن العالم الذي كان يعيش فيه ذلك الفنان الكبير ، و ابا تمام بمثل هذه التجربة الواسعة يمثل موقفا نظريا واضحا محددا وهي ان الشعر ينبغي ان يرتبط اعمق الارتباط بالتجربة الحية والا يقف ابدا عند التأمل الذاتي والتجريدي البعيد عن الحياة ، قد يقال ان مطالب العيش هي التي دفعت ابا تمام الى الرحلة والتجول والانتقال من مكان الى مكان ، ولكننا نجد في حياة ابي تمام لحظات عاش فيها مستقرا اشد الاستقرار ولكنه مع ذلك اثر الرحيل لانه لم يكن يبحث عن الاستقرار وانما كان يبحث عن « التجربة » والمعرفة والاستيعاب والشمول . فأبو تمام قد عاش بالشام سعيدا عالي الصوت واسع النفوذ في مجتمع تلك البلاد ولكنه مع ذلك لم يستقر بالشام بل ظل يتنقل ويرحل من مكان الى مكان يقوده نوع من القلق الخصب الذي يدفعه الى اكتشاف المزيد من حقائق العالم الذي كان يعيش فيه . ويحدثنا الدكتور طه حسين عن ابي تمام ومكانته فسي الشام وذلك عندما كتب عن البحري وصلته بأبي تمام . يقول طه حسين :

« ولد البحري في أوائل القرن الثالث الهجري سنة خمس أو ست ومائتين ولما شب اتصل بأبي تمام ، وكان أبو تمام قد عرف واشتهر أمره ، وكان له مجلس في حمص حينما كان يتصل بأهل حمص ، فكان شعراء حمص يأتونه فينشدونه أشعارهم ، وكان البحري من الذين أتوه وأنشدوه ، سمع له أبو تمام وأعجب به وظهر الرضا عنه ، فلما أنصرف الشعراء استبقى البحري وقال له : أنت أحسن من أنشدني فحدثني عن حالك ، فشكا له البحري فقرا وسوء حال ، فكتب له أبو تمام كتابا الى أهل معرفة النعمان ينبئهم ان هذا الرجل ، او هذا الشاب نابغة بارعة في الشعر ، ويوصيهم به خيرا ، فلما قرأوا الكتاب عنوا بالشاعر وجعلوا له مرتبا قدره أربعة الاف درهم كل عام » « طه حسين - من تاريخ الادب العربي - المجلد الثاني - ص ٣٥٥ - ٣٦٦ » .

وهكذا نجد ان ابا تمام كان قد حظي فني الشام بمكانة كبيرة ، بحيث كان الشعراء يقصدونه ، وبحيث كان يستطيع ان يضمن بكلمه منه « مرتبا قدره اربعة الاف درهم كل عام » لتساع مجهول ناسيء في ذلك الخين هو البحري . ولكن ابا تمام مع كل هذه المكانة بالشام وكل هذه السمعة وهذا النفوذ لم يبق بالشام وانما ترحل وأخذ ينتقل من مكان الى مكان طالبا ان يتعرف الى حدود العالم الذي يعيش فيه بقدر ما يستطيع ... فالتجربة الواسعة والمعرفة العميقة هما غايته وليس المال او الاستقرار او البحث عن الشهرة او النعمة وانهدوء والاستقرار . وهناك أبيات ثلثه مشهورة ومتعرفه لابي تمام يمثل فيها حنينه الدائم الى الرحلة وانتمائه الى عالم واسع شاسع متنوع ولهفه الى البحث والمعرفة والاستيعاب ... وهي ابيات جميلة رائعة انقلها من كتاب الدكتور طه حسين عن الادب العربي .

البيت الاول :

بالشام اهلي وبغداد الهوى وانا
بالرقتين وبالفسطاط اخواني

البيت الثاني :

وما اظن النوى ترضى بما فعلت
حتى تبلغني أقصى خراسان

البيت الثالث :

خليفة الخضر ، من يربع على وطن
في بلده فظهور العيش اوطاني

في هذه الابيات جميعا ترى ان الرحلة والتجربة الواسعة والاستيعاب للعالم الذي يحيط بالشاعر هي أساس حياته ، وفي البيت الاخير بالذات يقدم لنا الشاعر صورة بالغة الجمال حيث يقول انه « خليفة الخضر » والصورة الدينية المعروفة للخضر هي التنقل الدائم والتجدد الدائم ، والرحلة من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان ، ثم يقول الشاعر في صورته الرائعة : « ان ظهور العيس اي الجمال - هي اوطانه » ... اي ان الرحلة المتصلة هي وطنه الدائم ، بينما الاقامة بالنسبة هي استثناء عارض . ونحن نلاحظ هنا ان ابا تمام في حديثه عن رحيله الدائم لا يشعر باي مرارة ولا يعبر عن احساس باليأس او الحزن بسبب اضطراره الى الرحلة الذاتية مما يؤكد ان هذه الرحلة الدائمة كانت رغبة من رغبات ابي تمام وكانت هدفا من اهدافه ومطلبا من مطالبه ، وأنه ان لم يكن سعيدا بذلك فهو على الاقل غير متألم أو مستنكر لهذا الاسلوب من اساليب الحياة . ومن ناحية اخرى فباستطاعتنا ان نلاحظ ان « الرحلة » في عصر ابي تمام « القرن الثالث الهجري » كانت مصدرا أساسيا من مصادر المعرفة والثقافة ، ففي ذلك العصر لم يكن هناك وسائل اتصال ضخمة مثل الوسائل الموجودة حاليا كالتلفزيون والراديو والسينما والصحف ووكالات الانباء بحيث أصبح الانسان الان يستطيع ان يستوعب العالم ويعرف ما يدور فيه بقدر لا بأس به وهو في بيته ...

على خزانة للكتب فأنفق وقته في تصنيف ما ظهر له من المحترات ، ولكن هذا غير ممكن وغير معقول ، فقد دانت اقامته رهن زوال الثلج ، وهذا لا يتجاوز الاشتهر العلية ومن المستحيل ان يصدق انه قد اختار هذه الكتب في شهرين او ثلاثة « طه حسين - من تاريخ الادب العربي ص ٣٤٣ - الجزء الثاني » .

ولقد شن النقاد القدماء حملة عنيفة على ابي تمام واتهمه البعض بانه كثير السرقة من غيره لانه كان واسع الثقافة والمعرفة بادب الاخرين . ولسنا في مجال الدفاع عنه ضد هذه التهمة ، ولكن هذه التهمة نفسها تثبت ما نقول من ان ابا تمام كان واسع الثقافة بمعايير عصره ، فقد اهتم كثيرا بتثقيف نفسه ثقافة اديبية عالية . ولكنني اعتقد ايضا ان ثقافته قد امتدت من الادب الى غيره من الوان المعرفة مثل الفلسفة والتاريخ وما الى ذلك ، فقد كان ابنا لعصر ازدهرت فيه الثقافة العربية وتنوعت اصولها وثمارها واتصلت في هذا العصر بثقافات عريقة ، مثل الثقافة اليونانية والثقافة الفارسية . واذا كانت مختارات ابي تمام وما اخذه عليه النقاد القدماء من سرقات يدلان على سعة الاطلاع والثقافة الادبية عنده ، فان تركيب فسانده وصوره الفني المعقدة الصعبة لا يمكن ان يصدر شيء منها الا عن عقل كبير صقلته ثقافته واسعه في مختلف الوان المعرفة . وهكذا نجد ان ابا تمام يؤكد لنا من خلال موقفه الفني ان ارتباط الشعر بالثقافة قضية ضرورية اساسية . وموقف ابي تمام هو رد على كل الدعاوي التي ترد الشعر الى مجرد الفطرة والبديهة التلقائية او ترده الى مجرد التجربة الحية فقط ، او التي تطلب من الشاعر ان يحقق مجرد الجمال الفني في قصيدته ، واذكر في هذا المجال شاعرا عربيا كبيرا ومعاصرا لنا كان يقول دائما انه لا يقرأ لانه يكتب بجدوة الالهام المشتعلة في داخله . والواقع ان هذا الشاعر يمثل في موقفه من الثقافة وارتباطها بالشعر نوعا من الرأي السائد في حياتنا الادبية وهي ان الشعر والفن عموما ليس من الضروري ان يرتبطا بثقافة واسعة وكبيرة ، وان الالهام والموهبة كافيان في هذا المجال . ولعلي لا اكون مخطئا اذا قلت ان من اكبر عيوب الشعر العربي المعاصر في كثير من الاحيان هو : ضعف الثقافة وانخفاض مستوى التجربة الثقافية عند الشعراء ، اما الشعراء المعاصرون الذين حققوا شيئا باقيا له قيمة فهم ولا شك الشعراء المثقفون ذوو الموهبة الاصيلية والعقول المستوعبة الكبيرة .

ولعلنا نستمع الى صوت ابي تمام يأتينا من وراء العصور ليؤكد لنا انه لا يمكن ان يولد شعر عظيم بدون ثقافة عظيمة .

القضية الثالثة التي يثيرها ابو تمام اذا تأملنا في شعره وشخصيته هي قضية التجديد . . فهو شاعر قد رفض الانسياق وراء القديم واراد ان يحقق لنفسه شخصية خاصة ورؤية مستقلة واسلوبا يخرج تماما على

لا يتحرك ولا يسافر . ولكن الرحلة في المجتمعات القديمة كانت من اكبر وأعمق مصادر الثقافة والمعرفة الانسانية وتستحق فكرة « الرحلة كمصدر للثقافة في العصور القديمة » دراسة واسعة مستقلة ، ولعلنا نذكر في هذا المجال ان رحلات العرب قبل الاسلام الى خارج الجزيرة كانت مصدرا رئيسيا للتيارات الثقافية التي هبت على الجزيرة من خارجها . بل لقد تفتح وعي النبي العربي العظيم محمد «ص» على رحلته الى الشام في بداية حياته وهكذا فقد اعطانا ابو تمام اجابة رائعة لمشكلة العلاقة بين « الشعر والتجربة الحية » . . . وهذه الاجابة المحددة الواضحة هي الدعوة الى الربط العميق بين فن الشعر وتجربة الحياة باوسع معاني هذا الارتباط ، وهو موقف يرفض تماما ان يكون الشاعر متفرجا على الناس وان يكون الشعر ثمرة للتأمل والخواطر الذاتية والسلامة والعافية بالنسبة لتجارب الدنيا وأخطار الحياة .

القضية الثانية التي يقدم فيها ابو تمام اجابة عصرية هي قضية « الشعر والثقافة » فقد ربط ابو تمام بين الشعر والثقافة وبرباط رائع وعميق ونحن لا نجد هذا الرباط القوي لدى شاعر قديم آخر مثلما نجده عند ابي تمام . ومن بعد ذلك في المعري ، ولاشك ان موقف ابي تمام من الثقافة هو رد واضح ومحدد على دعوات الشعر الخالي من الفكر ، والذين يرون في الشعر مجرد تأملات عامة ويرون فيه نوعا من الجمال الذي ليس من الضروري ان يضيف للعقل شيئا ، بل يكفي ان نحس بالمتعة الفنية فيه وحسب . ولقد كانت حياة ابي تمام تفري الفنان المتوسط بالاكتفاء بما فيها من تجارب غنية ورحلات عديدة واسعة كمصدر من مصادر الفن الشعري . . . ففي حياة ابي تمام من التجارب ما يفنيه - لو كان شاعرا متوسطا - عن طلب الثقافة والمعرفة في الكتب ، وعن العكوف الطويل على هذه الكتب بعمق وامانة واستيعاب ، ولكن ابا تمام كان يبحث عن أعمق المنابع وأصفاها لكي يصل في آخر الامر الى الشعر الرفيع ، ولذلك كان قارئا نهما ، وكان يعرف ان الثقافة الكبيرة لا غنى عنها اذا اراد ان يصل الى الشعر العظيم . . . يقول الدكتور طه حسين عن ثقافة ابي تمام :

« لم يكن حافظا للشعر او راوية له ، كأبي نواس ولم يكن راوية منطلقا للرواية والانتحال كخلف ، ولكنه كان حافظا وكان كثير النظر في الشعر ، ميالا الى الاختيار منه لم يكن اذن يحفظ ويكتفي بالرواية ، وانما كان يعاشر الشعراء معاشرة متصلة ، يقرؤهم ويطلب النظر فيهم ، ويدل على قراءته لهم هذا الاختيار الذي كان يختاره في كتب يديعها بين الناس ، ولا يبي تمام كتب كثيرة اظنها ستة كلها مختارات فمنها الحماسة ، واختيار من شعراء الفحول ، واختيار من شعراء القبائل ، واختيار من شعراء المحدثين . تحدثنا الاخبار ان ابا تمام قد اختار كل هذه الكتب لانه اضطر للبقاء في همدان ، فقد حال الثلج بينه وبين المضي في سفره . فاضطر الى البقاء وعكف

الجديد في شعر أبي تمام يدعوهم إلى أهتمامه في دينه . . . ، كما يفعل الرجعية الادبيه المعاصره حينما تتهم السعراء الجدد بانهم شيوعيون وما الى ذلك من التهم التي تهدف الى التضليل والشوشرة .

وهكذا استطاع ابو تمام ان يصمد امام الرجعية الادبيه ويحقق نصرا واضحا بارزا لفضية التجديد الادبي بلا نحفظ ولا خوف ولا رجعة الى الذوف العديم او الفكر العديم . وموقف ابي تمام درس لنا ولضماننا الادبيه المعاصره . . . انه يدعونا الى مناصره الجديسـد الاصيل بقوة وبلا خوف او تردد ادبي . واجيرا فاود ان أفق وقعه سريعة مع ايمان ابي تمام بالعلم ، فلقد حفلت قصيده المتهوره عن «فتح عموريه» وهي القصيده التي اصبح مطلعها على لسان الكثيرين :

السيف اصدق انباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

. . . في هذه القصيدة يشن ابو تمام حملة عنيفة على « المنجمين » ولم اقرا في الشعر العربي القديم دفاعا عن العلم واراذه الاسان منلمت فرات في هذه القصيده عن ابي تمام . . . ان لتمامه هنا يمثل توره حقيقيه على الخرافه والاوهام وهما عتان رئيسيتان من علل الانسان العربي مند العصور القديمه . . . كما ان موقف ابي تمام في هذه القصيده هو موقف الدفاع الاصيل عن الفعل الانساني والاراده الاسانية والدفاع عن مسئولية البشر عن موافقهم وتصرفاتهم المختلفه .

السيف اصدق انباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الارماح لامعة

بين الخميسين لا في السبعة الشهب

اين الرواية بل اين النجوم وما

صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصا واحاديثا ملفقة

ليست بنبع اذا عدت ولا عذب

وبقية القصيدة تفيض بهذه الروح العميقة فسي

الدفاع الصادق عن العقل والارادة البشرية ومسئولية

الانسان ضد الخرافة والوهم والتخلي عن المسئولية

والارادة البشرية . . . ولعل هذا الموقف هو واحد من

اصدق مواقف ابي تمام واكثرها صدقا بالنسبة للمجتمع

العربي المعاصر وموقفه من الحياة

تحية لابي تمام في ذكراه .

ولعلنا مرة اخرى نسمع صوت ابي تمام ونصفي اليه

بامانة وعمق .

تلك الأساليب البسيطة الساذجة المعروفة في الشعر العربي القديم ، ان صورة مليئة بالتركيب والتعقيد ، وهي صور جديدة خاصة به ، لم تكن مألوفة في عصره ، ولا قبل عصره ، ونحن نجد على سبيل المثال تلك الصورة الشهيرة عند الشاعر العربي العديم حيث كان يصور الانسان « الحكيم » بانه كالجبل الراسخ الثابت في الارض والذي لا يتأثر بالاحداث الخارجيه تاترا سريعا ولا يهتز لها بسهولة ، ولكن ابا تمام قدم لنا صورة اخرى مختلفه تماما هي صورة الانسان الحليم الذي يشبه « البرد الرقيق الحواشي . . . وهي صورة جريته وذكية وحساسة . . يقول ابو تمام :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه

يكفيك ما ماريت في أنه برد

هذه الصورة الجديدة يقول عنها احد النقاد القدماء

كما يروي لنا الدكتور احسان عباس في كتابه الممتاز عن

نريح النعد الادبي عند العرب « ص ١٢٨ » . . . يقول

هذا الناقد القديم عن بيت ابي تمام : « هذا البيت اضحك

الناس مند سعموه الى هذا الوقت » . . . اي ان جراءة

ابي تمام كانت تحديا للذوف العربي السائد وفتحا لرؤي

شعرية جديدة على ان المسالة لا تعف عند حدود الصورة

الجزئية وتجريدها ، فالنسيج الشعري كله عند ابي

تمام هو نسيج جديد تماما على القصيدة العربية ، وأبرز

شيء في هذا النسيج انه تخلص من التعبير السهل

السريع المباشر وقدم نسيجا آخر يحتاج الى كثير من

الفكر والعمق حتى يمكن فهمه وبدوقه . وبسبب هذه

القصيدة الجديدة الجريته المتحدية للذوق السائد عند

ابي تمام هاجمه النقاد العرب القدماء هجوما عنيفا حتى

اتهمه بعضهم بأقسى ما يمكن ان يتهم به انسان في المجتمع

الاسلامي القديم . . . وتلك هي تهمة « الكفر » والخروج

على الدين ، ويقول الناقد العربي القديم « الصولي »

« عن كتاب تاريخ النقد عند العرب للدكتور احسان عباس

ص ١٥١ :

« وقد ادعى قوم على ابي تمام الكفر وجعلوا ذلك

سببا للطعن على شعره ، وتبجح حسنه » ثم يضيف ذلك

الناقد القديم هذا التعليق الاصيل المنصف الذي يحتج

فيه على اصحاب الاعتراضات السطحية والملفقة على

الشعر والشاعر فيقول « . . . وما ظننت ان كفرا ينقص

من شعر ولا ان ايمانا يزيد فيه » .

ولقد وقع ابو تمام فريسة لهجوم كل النقّاد

المتعصين الذين يمكن ببساطة ان نصفهم بالرجعية الفكرية

والادبية الا ان الكثير منهم كانوا اهل لفة ونحو مثل «ابن

الاعرابي » . ولكن ابا تمام لم يعبأ بأصواتهم غير العادلة

ولا بدوقهم الفاسد . ولا شك ان الزمن قد نصر ابا

تمام الفنان المبدع صاحب الخيال الجريء المنطلق على

النحاة واللغويين من دعاة الرجعية الادبية . . . الجامدين

المتحجرين . . . هؤلاء الذين كان عجزهم احيانا عن محاربة